في قارة افريقية بلاد واسعة غير البلدان التي يسكنها البيض الآن قد لا تقل مساحتها عن ١٥٠ الف ميل مربع او نحو مئة مليون فدان وهي صالحة لسكنى الاوربيين ولا ينازعهم الزنوج فيها اما لانهم لا يسكنونها الآن او لانهم قلال فيها جدًّا فمجال الاستعمار فيها واسع

ومن رأي الكاتب انهُ يجب تقسيم افريقية من الآن تقسيمًا يؤهلها للاستعمار فتترك البلاد الكثيرة السكان لاهلها وتعطى البلاد القليلة السكان التي هواؤها غير صحيح للهنود وغيرهم من اهالي اسيا لانهُ لا يتعذَّر عليهم السكن فيها واما البلاد القليلة السكان الطيبة الهواء فتعطى للاوربيين وتبقى السيادة للبيض حتى في البلدان التي اكثر سكانها من السود الى ان يتعلم السود و يتأصل العمران في بلادهم ولكن تكون خيراتهم لهم لا للبيض والاَّ اشتدَّ النفور بين الفريقين وكثر سفك الدماء وتأخر عمران البلاد قرونًا كثيرة

وفي ما ارتآهُ من التقسيم وسكن كل فريق من الناس في البلاد التي تصلح لهُ خير ضامن لفلاح الامم التي تسكن افريقية وخير ضامن لفلاح كل امة لان الامة التي تسيطر عليها وتعيش لا تعتمد على نفسها فتبقى كالطفل الذي تحملهُ بين ذراعيك ولا تدعهُ يقع ويقوم حتى تشتد كعباهُ و يستطيع المشي او كالشاب الذي يساعدهُ والداهُ في كل اعمالهِ فلا يدعان لهُ سبيلاً لاعتمادهِ على نفسهِ . وكل من يذهب الى غير ذلك فهو يجهل تاريخ العمران وعلم طبائع الانسان

الخطر الاصفر

ان ما أبدتهُ اليابان من البسالة والاقدام في هذه الحرب حمل كثيرين من الكتَّاب على الظن انها قد تتحد مع الصين وتجند من الصينيين الملايين الكثيرة وتدوِّخ بهم اوربا وسموا ذلك باتحاد الشعوب الصفراء وقالوا انهُ الخطر الاصفر الذي يتهدَّد اوربا اذا عقد النصر لليابان في حربها مع الروس . والظاهر ان مروجي هذا الوهم كانوا يقصدون اثارة خواطر الاوربيين الى الاخذ بناصر الروس فتصدَّى لهم اناس ضلعهم مع اليابان وكثر الحجاج واللجاج بين الفريقين . واطلعنا اخيرًا على مقالة لاحد كبار الكتاب جمع فيها من الشواهد والادلة ما يقنع القارىء ان لا خوف من انضواء شعوب الصين تحت لواء حربي مهما كان . وفي المقالة فوائد جمة لا بأس باطلاع قراء المقتطف عليها قال الكاتب

اذا انضمت الشعوب الصفراء (اهالي الصين واليابان) وانضوت تحت لواء واحد فقد لا تسلم اوربا من شرها ولاسيما الدول التي لها ولايات واسعة في الشرق كانكلترا وفرنسا لان اهالي تلك الولايات من الشعوب الصفراء

ولقد كان عمران الصين واليابان واحداً منذ اربعين سنة وكانت علومهما واحدة وصنائعهما واحدة وكانوا يكرهون الاجانب على حدٍ سوى فلا غرابة اذا نهضت الصين كما نهضت اليابان وجارتها في مضمار العمران ونظمت جندیتها وبحريتها كما نظمتها اليابان وتكون الصين اقوى من اليابان حينئذٍ بمقدار ما هي اوسع منها نطاقاً واكثر سكاناً ويكون الخطر الاصفر حقيقياً لا وهمياً

لكن الكاتب نفى امكان ذلك وقال ان الصينيين واليابانيين يختلفون اختلافاً جوهرياً في تواريخهم وتقاليدهم واخلاقهم واغراضهم وسائر امورهم حتى يستحيل التوفيق بينهم. وجوهر الاختلاف ان اليابانيين اهل سعة ونظر في المستقبل يحبون الارتقاء ويكرهون الجمود واما الصينيون فجمدوا على حالة واحدة منذ الوف من السنين كانهم عائشون في الماضي ولا يزالون على هذا الجمود حتى الآن . وكل ما في الصين من علم وسياسة مبني على قوانين سنّت قبل عصر موسى الكليم ونظام حكومتهم لم يتغير من عهد فيلسوفهم كنفوشيوس الى الآن بل يتناقله الخلف عن السلف كما هو. وعندهم مجلس مؤلف من اكابر الدولة لمراقبة الاوامر الملكية حتى تكون مطابقة لقواعد كنفوشوس في كل الامور الجوهرية ولا تزال قواعد كتاب الفرائض الذي أُلف منذ ثلاثة آلاف سنة معمولاً بها في كل دوائر الحكومة وفي كل البيوت

وقد نشأ كنفوشيوس قبل المسيح بنحو خمس مئة سنة وقبل الاسكندر بثلثمئة سنة ولا يزال اهل الصين من الملك الى اصغر الصعاليك يكرمونهُ اكراماً دينياً ويأتمرون بأوامره. واوامرهُ مبنيةٌ على اقوال قالها ملوك الصين الاقدمون الذين نشأوا قبلهُ بنحو ١٨٠٠ سنة اي من سنة ٢٣٥٦ الى سنة ٢٢٠٥ قبل المسيح حاسباً ان ذلك الزمن افضل ازمنة الصين وهو مثل ما يلقبهُ الاوروبيون بالعصر الذهبي

واذا أراد احد من الصينيين ان يرتئي رأياً او يشير بعمل فيهِ مصلحة لبلادهِ اضطر ان يسندهُ باقوال من كتب القدماء كأن باب الاجتهاد اقفل عندهم منذ الفي سنة او اكثر وهم مثل علماء المسلمين من هذا القبيل فقد وصل الى يدنا كراس ونحن نكتب هذه السطور موضوعهُ ارشاد الامة الاسلامية الى اقوال الائمة في الفتوى الترنسفالية ويقال انها "لاكابر مدرسي الازهر بمصر وائمة المذاهب الاربعة الذين يعوّل عليهم ويوثق بعلمهم في العلوم الشرعية." فقلبنا صفحاتها فوجدناها مثل ما كتب قبلها في هذا الموضوع مستندها اقوال المتقدمين وتفاسيرهم للكتاب والسنة كأنَّ كاتبيها لا يستطيعون ان يبدوا رأياً يدلهم عليهِ عقلهم وعلمهم فكلهم مقلد كرجال الصين. فلو سئل اوربي هل يجوز اكل هذا الذبيح لقال نعم يجوز اذا

لم يكن فيهِ مرض ينتقل الى آكلهِ او فساد يؤذيهِ واما اذا كان فيهِ مرض ينتقل الى آكلهِ فلا يجوز اكلهُ سمي عليهِ او لم يسمّ. وكذا البرنيطة فانهُ يجب ان ينظر اليها من حيث كونها لباساً للرأس ومن حيث اتفاق الناس على لبس يمتازون بهِ عن غيرهم . ولا يخفى ان السائل سأل عن جواز اكل الذبيحة ولبس البرنيطة دينًا فكان الجواب على قدر السؤال ولكن الامم الراقية الآن مراقي الفلاح تبني مطالبها على التحقيقات العلمية لا على سواها ونحن نجاريها في امور كثيرة فاذا مرض ابن اكبر علمائنا استدعى لهُ طبيباً ماهرًا في صناعة الطب ولم يسأل ما هو قول الشافعي ولا ما قول ابن سينا واذا وقع وباءٌ في ماشيتهِ سأل ارباب الفن عن كيفية علاجهِ ولم يبحث عن اقوال الائمة فيهِ فاحرِ بنا ان نبني عليها في ما نأكلهُ وما نلبسهُ

نعود الى الصين — واذا اراد ملك الصين ان يأمر بامر او يجدد شيئًا اضطرَّ ان يعزز اقولهُ باقوال الائمة الاقدمين ويبني على احكامهم مثال ذلك ما ورد في امر اصدرهُ حديثًا قصد بهِ اصلاح بلادهِ فقال

" ان القوانين التي يسترشد بها الناس قديمة غير متغيرة ولكن اسلوب الحكم بها يمكن تغييرهُ وقد صرَّح بذلك كتاب التغييرات نعم ان القيود الثلاثة والفضائل الخمس الواضحة وضوح الشمس والكواكب لا يمكن تغييرها ولكن يمكن التغيير في امور الملك كما يغير العازف اصابعهُ وهو ينقر على الوتر "

والتقليد شأن الصينيين في كل امورهم وهم يقلدون ائمتهم الذين نشأوا منذ ثلاثة آلاف سنة او اكثر ولا يحيدون عن احكامهم شعرة فكيف يرجى ان يجاروا العمران الحاضر وهو كل يوم في شأن . ولا يقلدون من جاء بعد اولئك الائمة لان عمرانهم وقف عند ذلك الحد ولم يتجاوزهُ كما وقفت علومنا عند الحد الذي بلغتهُ في دولة بني العباس

وينكر الصينيون على الاوربيين كل علم وتقدُّم ويقولون كما قال لنا احد علماء الازهر منذ بضع عشرة سنة ان كل العلوم الطبيعية التي يفخر بها الاوربيون هزءٌ ومن علمائنا من يفوت هذا الحد قال لنا واحد منهم كل العلوم مجموعة تحت نقطة الباء في البسملة

وينظر الصينيون الى ما في العمران الاوربي من المفاسد فيحكمون بفسادهِ كلهِ . قال امير من امرائهم " اننا اذا قابلنا تاريخ الصين من الآن الى التي سنة مضت بتاريخ اوربا من الآن الى خمسين سنة مضت لم نرَ في تاريخ اوربا شيئًا من كرم الاخلاق الذي نراهُ في تاريخ الصين " . ولما ثار البوكسر على الاوربيين قال الصينيون عامتهم وخاصتهم ان اله السماء سخط على هؤلاء البرابرة (اي الاوربيين) فاذن للجن والابالسة ان تقوم عليهم وتهلكهم . ولما اراد

القيصر الحالي ان يزور بلاد الصين منذ ثلاث عشرة سنة ابت الصين عليهِ ذلك لئلا يحسب اكرامها لهُ اعترافاً منها بعلو قدرهِ وبان بلادهُ مساوية لبلادها مقاماً . وارتفع الصينيين واعتدادهم بانفسهم يأنفون من اقتباس ملابس الاوربيين ولو في اوربا

وقد قال كنفوشيوس « لامزاولة بلا مواظبة ولا راحة بلا مزاولة ولاسكينة بلا راحة ولاتفكير بلا سكينة ولا نجاح بلا تفكير » . وهذا يفسر حال الصينيين العقلية فعندهم الراحة اصل لكل نجاح وهي انما تحصل بالمواظبة والمزاولة فيواظبون على ما في يدهم و يزاولونهُ دواماً حاسبين انهُ ينيلهم الراحة والنجاح

وكتابة الصينيين وعلومهم يستغرق تعليمها سنين كثيرة فيقضون زهرة العمر في تعلم لغتهم وحفظ قواعد وقوانين قليلة النفع فلا يبقى لهم وقت لتعلم لغة اجنبية . ولاستظهارهم تعاليم ايمتهم ترسخ قواعدها في نفوسهم حتى يتعذر نزعها منها

ثم انهم يعبدون اسلافهم او يحترمونهم احتراماً دينيًّا فيضطرون ان يسيروا بسيرتهم و يطبقوا اعمالهم على ما يعلمونهُ عنهم ولذلك تجدهم يحاولون دائماً ان يعيشوا كما عاش اسلافهم منذ ثلاثة آلاف سنة

وجملة القول ان الصينيين اهل سلام وسكون لا يطلبون الحرب ولا يتوخون التغيير . وعلى الضد من ذلك اليابانيون فانهم اهل حرب وجلاد يتوخون الارتقاء دائماً . غزوا كوريا منذ سبعة عشر قرناً ورأوا عمرانها اسمى من عمرانهم فاقتبسوهُ منها . ولرغبتهم في الاستفادة من كل من هو ارقى منهم جعلوا يقتبسون المعارف والصنائع من الصينيين لانهم كانوا ارقى الامم الذين اتصلوا بهم وما كادوا يتصلون بالاوربيين والاميركيين حتى جعلوا يستفيدون منهم ويقتبسون اساليبهم فانهُ لم تمضِ اربع سنوات من حين دخل بلادهم الكومودور بري الاميركي وضربها بمدافعهِ سنة ١٨٦٤ حتى هبوا من سباتهم وومسدوا السلطة لليكادو على البلاد كلها وجعلوا يقتبسون اساليب القتال الاوربية لانهم وجدوها افعل من اساليبهم وكذلك اساليب العمران وفتحوا اول سكة حديدية في بلادهم سنة ١٨٧٢

حادثة واحدة جعلت اليابانيين يستيقظون ويتحدون بعد ان كانوا حزبين متضادين اما الصين فحلّت بها النوائب والعبر ولم تستيقظ من سباتها ولا انتبهت من غفلتها فان روميا اخذت منها ولاية امور وولاية اسوري و بلاد منشوريا كلها وفيها مدينة مكدن حيث مدفن العائلة المالكة . وفرنسا اخذت التنكين وانام وكوشين صين . وانكلترا اخذت برما وهنج كنج وواي هاي واي . والمانيا اخذت شانتنج وفيها قبر كنفوشيوس . واليابان اخذت

فرموسا . وسيام استقلت عنها بعد ان كانت خاضعة لها . ومع ذلك بقيت الصين على حالها صابرة ساكنة لاتبدي حراكاً كما كانت منذ الفي سنة الى الآن معتمدة على سياستها السابقة سياسة السكون والمسالمة سياسة الاكل والهضم والامتصاص لان كل الذين غزوها من غابر الزمن اكلتهم وهضمتهم وامتصتهم فصاروا منها فهل يعقل انها تلبي دعوة اليابان وتنهض نهضتها وتسلم قيادها لها وهي تحتقرها اكثر مما تحتقر الاوربيين

ثم ان الصين ليست مملكة واحدة ولا يشعر شعبها انهم ابناء وطن واحد وان لهم كلمة واحدة تجمعهم وانما هم ولايات مستقلة يجمعها كلها العمل بتعاليم كنفوشيوس فالرابطة الوحيدة بينها التعاليم الدينية والادبية وآداب اللغة

وليس لدولة الصين جنود تحمي بيضتها بل الجنود للولايات خاصة كل ولاية تقيم جنودها لتدافع عنها واذا دنت جنود ولاية من ولاية اخرى اضطربت هذه كأن جيوش دولة اجنبية دنت منها ولو كان المراد جمع جنود الولايتين لمحاربة عدو معادٍ لهما كلتيهما . لما ثار الصينيون على الاجانب سنة ١٨٩١ سمحت حكومة الصين بصعود السفن الحربية الاجنبية في نهر ينتسي لكبح جماح الثائرين ولم تخمد ثورتهم بيدها اكي لا تغيظهم . ولما نشبت الحرب بين الاسطول الياباني والاسطول الصيني كان الاسطول الشمالي من اسطولي الصين يحارب اسطول اليابان واما الاسطول الجنوبي فبقي مكانهُ في البحار الجنوبية كأنهُ لدولة اخرى مع انهُ لو بادر الى نجدة اسطول الشمال لتغلب الاسطولان على اسطول اليابان لانهما اقوى منهُ كثيراً . ثم لما انتهت الحرب طلبت الصين من اليابان ان ترد لها سفينة من السفن التي غنمتها لانها اسرتها خطأ وهي من اسطول الجنوب الذي لم يشترك في الحرب

ولاستقلال الولايات بعضها عن بعض يخاطب ملك الصين ولاتها في اوامره الرسمية بصيغة الرأي والمشورة لا بصيغة الامر الواجب الطاعة فاذا راقت في عيونهم عملوا بها والاَّ فلا مراعين في ذلك مصالحهم الخاصة او مصالح ولاياتهم المختلفة واحوالها المالية

فبلاد الصين ليست مملكة واحدة ولا الصينيون امة واحدة بل بين سكان الولايات المختلفة من الاختلاف كما بين سكان اوربا حتى اذا دخل جيش ولاية اخرى عاث فيها فساداً ونهب وسلب كأنهُ في بلاد العدو

وقد بذل كثيرون من الضباط الاوربيين عنايتهم في تعليم جنود الصين فنون القتال او التعاليم العسكرية الحديثة واتوهم باحدث الاسلحة ولكن لم ينتظم حتى الآن جيش صيني يستحق ان يقابل بالجيوش المنتظمة . ولا تزال الجنود الصينية تُتمرن على الرماية بالقوس

والشاب ولا تحسب الفوز في اصابة الغرض بل في وقفة الزامي وقت نزعه بالقوس

وقواد الجيش في الصين "مقاولون" يضمنون الجيش بمبلغ معلوم من المال وغاية ما يسعون اليه الكسب من هذه المقاولة بتقليل ما ينفقونهُ على الجيش حتى يزيد ربحهم . وتعاليم كنفوشيوس التي لها المقام الاول في نفوسهم تحقر الجنود والجندية فهي مثل تعاليم تولستوي الفيلسوف الروسي الذي قال "ان اول فرض من الفروض الواجبة على الامَّة استئصال الحرب مطلقاً"

وبينا ترى الجمع الغرض الذي يرمي اليه ساسة اوربا ترى التفريق الغرض الذي يرمي اليه ائمة الصين ففي اوربا مثلاً مصلحة المملكة مفضَّلة على مصلحة الولاية ومصلحة الولاية على مصلحة العائلة واما في الصين فمصلحة الولاية مقدمة على مصلحة المملكة ومصلحة العائلة على مصلحة الولاية فلا وطن ولا اتحاد الاَّ في العيال والجمعيات السرية

ولا يعرف الجنود الوطنية وحب الوطن ولا ينتظمون في الجندية الاَّ مكرهين اومستأجرين وما منهم ومن اكبر قوادهم الاَّ وهو بيع وطنهُ لكل خاطب . والصيني موصوف بالصدق والامانة حتى ان التجار الذين عاملوا الصينيين يسلمون التاجر الصيني اي مبلغ كان من المال ولا يأخذون عليهِ صكًّا لانهم يعلمون ان كلمتهُ صك عليهِ وهم مع ذلك لا يُصدقون ولا يؤتمنون في امور المملكة فالصيني امين لعائلتهِ واسمها حتى انهُ يفتديها بنفسهِ وغير امين لمملكتهِ وبالضد منهُ الياباني فانهُ امين لمملكتهِ يضحي نفسهُ وعائلتهُ لها

فالفرق بين الصينيين واليابانيين اعظم من الفرق بين الصينيين والاوربيين والذي يظن ان الاتفاق بين الصينيين واليابانيين ممكن يجهل طباع الامتين

وقد ادرك بسمارك احوال الصين وعلم انهُ لا خطر منها على اوربا فقال قبيل موتهِ لقد قيل ان الصين قد تنهض ويكون منها خطر على اوربا اما انا فلا ارى ذلك ممكنًا نظرًا لما ظهر من اهاليها من الجمود مدة القرون الماضية

هذه الامور وامثالها تجعل البون شاسعاً بين الصين واليابان وتمنع الصين من ان تكون امة حربية او ان تسلم قيادها لليابان . وقد استنتج الكاتب من ذلك كلهِ ان اتحاد الصين واليابان اتحادًا حربيًّا ضرب من المحال فلا خوف على اوربا منهما